مناظرة الإمام الرضا(ع) مع أبي قُرة

<"xml encoding="UTF-8?>

تصدّى الإمام الرضا (عليه السلام) لإبطال الشُبَه التي أثيرت حول العقيدة الإسلامية .

وقد قصد أبو قُرة خراسان لامتحان الإمام (عليه السلام) ، وطلب من صفوان بن يحيى ، وهو من خواص الإمام (عليه السلام) أن يستأذن منه للدخول عليه ، فأذن الإمام (عليه السلام) له .

فلمَّا تشرَّف بالمثول أمامه سأله عن أشياء من الحلال والحرام ، والفرائض والأحكام ، فأجابه (عليه السلام) عنها .

ثم سأله عن بعض قضايا التوحيد ، وهذه منها :

قال أبو قُرَّة : أخبرني جعلني الله فداك عن كلام الله لموسى ؟

فقال (عليه السلام) : (اللهُ أعلم بأيٍّ كَلَّمَهُ ، بالسِّريانيَّة أم بِالعِبرَانِيَّة) .

فأخرج أبو قُرَّة لسانه وقال : إنما أسألك عن هذا اللسان – ومعنى ذلك أنه هل كلَّمه بلسان كَلِسَان الإنسان – ؟

فقال (عليه السلام) : (سبحان الله عما تقول ، ومعاذ الله أن يشبه خلقه أو يتكلم بمثل ما هم متكلِّمون ، ولكنه تبارك وتعالى ليس كمثله شيء ، ولا كمثله قائل ولا فاعل) .

فقال أبو قُرَّة : كيف ذلك ؟

فقال (عليه السلام) : (كَلام الخالقِ لمخلوقٍ ليس كَكَلام المخلوق لمخلوق ، ولا يلفظ بِشَقِّ فَمٍ ولسان ولكن يقول : (كُنْ) ، فكان بمشيئتِهِ ما خاطب به موسى من الأمر والنهي من غير تردّد في نَفَس) .

فقال أبو قُرَّة : ما تقول في الكُتُب ؟

فقال (عليه السلام) : (التَّوراةُ ، والإنجِيل ، والزَّبُور ، والفُرقَان ، وكل كتابٍ أُنزِل كان كلام الله ، أنزله للعالمين نوراً وهُدىً ، وهي كلّها مُحدَثة ، وهي غير الله حيث يقول عزَّ وجلَّ : (أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً) [طه : ١١٣] .

وقال عزَّ وجلَّ : (مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنْ رَّبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ استَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ) [الأنبياء : ٢] .

والله أحدَثَ الكتب كلها التي أنزَلَها) .

فقال أبو قُرَّة : هل تُفنَى – أي : الكتب – ؟

فقال (عليه السلام) : (أجمعَ المسلمون على أنَّ ما سوى الله فانٍ ، وما سوى الله فعل الله ، والتوراة والإنجيل والزَّبور والفرقان فعل الله ، ألم تسمع الناس يقولون : رب القرآن ، وأن القرآن يقول يوم القيامة : يا ربِّ هذا فلان – وهي أعرف به منه – قد أظمأتُ نهارَه وأسهرتُ ليله ، فَشَفِّعنِي فيه .

وكذلك التوراة والإنجيل والزَّبور وهي كلها مُحدَثة ، مَربُوبة ، أحدثها من ليس كمثله شيء هُدىً لقومٍ يعقلون ، فمن زعم أنَّهُنَّ لم يَزلْنَ معه فقد أظهر أن الله ليس بأول قديم ، ولا واحد ، وإن الكلام لم يزل معه ، وليس له بدو ، وليس بإِلَه) .

فقال أبو قُرَّة : إنا روينا : إن الكتب كلّها تجيء يوم القيامة والناس في صعيد واحد ، قيام لِربِّ العالمين ، ينظرون حتى ترجع فيه ، لأنها منه وهي جزء منه ، فإليه تصير .

فقال (عليه السلام) : (هكذا قالت النصارى في المسيح إنه روحه ، جُزء منه ، ويرجع فيه ، وكذلك قالت المجوس في النار والشمس أنهما جزء منه ترجع فيه .

تعالى ربُّنا أن يكون متجزياً أو مختلفاً ، وإنما يختلف ويأتلَّف المُتجزي لإن كل متجزي متوَّهم ، والكثرة والقلة مخلوقة دالَّة على خالق خلقها) .

فقال أبو قُرَّة : إنا روينا : إن الله قسم الرؤية والكلام بين نبيَّين ، فقسم لموسى الكلام ولمحمد الرؤية ؟

فقال (عليه السلام) : (فمن المُبلغ عن الله الثقلين : الجن والأنس ؟ ، إنه لا تدركه الابصار ، ولا يحيطون به علماً ، وليس كمثله شيء ، أليس محمد) ؟

فقال أبو قُرَّة : بلى .

وأوضح الإمام (عليه السلام) له الأمر ، وكشف ما التبس عليه قائلاً :

(كيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله ، وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله ، ويقول : إنه لا تدركه الابصار ولا يحيطون به علماً ، وليس كمثله شيء .

ثم يقول : أنا رأيتُه بعيني ، واحطتُ به علماً ، وهو على صورة البشر .

أما تستحيون ؟!! ما قَدِرَت الزنادقة أن ترميهِ بهذا ، أن يكون أتى عن الله بأمر ثم يأتي بخلافه من وجه آخر) .

فقال أبو قُرَّة : إنه يقول : (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى) [النجم : ١٣] ، وما بعدها .

فقال (عليه السلام) : (إن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى ، حيثُ قال :

(مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأى) [النجم : ١١] .

يقول : ما كذب فؤاد محمد ما رأت عينَاه ، فقال :

(لَقَدْ رَأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى) [النجم : ١٨] ، فآياتُ الله غير الله .

وقال : (وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً) [طه : ١١] .

فإذا رأته الأبصار فقد أحاط به العلم ، ووقعت المعرفة) .

فقال أبو قُرَّة : فنكذِّب بالرواية ؟

فقال (عليه السلام) : (إذا كانت الرواية مُخالفة للقرآن كَذَّبتُها ، وما أجمع المسلمون عليه أنه – أي الله تعالى – لا يُحاط به علماً ، ولا تدركه الأبصار ، وليس كمثله شيء) .

فقال أبو قُرَّة : ما معنى قوله تعالى :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ..) [الإسراء : ١] .

فقال (عليه السلام) : (لقد أخبر الله تعالى أنه أسرَى به ، ثم أخبر أنَّه لِمَ أُسْرِيَ به ، فقال : (لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا) [الإسراء : ١] .

فآيات الله غير الله ، فقد أعذر ، وبَيَّن لِمَ فعل به ذلك ، وما رآه ، وقال :

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ) [الجاثية : ٦]) .

فقال أبو قُرَّة : أين الله ؟

فقال (عليه السلام) : (الـ (أيْنَ) مَكان ، وهذه مسألة شاهدٍ عن غائب ، فالله تعالى ليس بغائب ، ولا يُقدِمُه قادم ، وهو بِكُل مكان ، موجود ، مدبِّر ، صانع ، حافظ ، ممسك السماوات والأرض) .

فقال أبو قُرَّة : أليس هو فوق السماء دون ما سواها ؟

فقال (عليه السلام) : (هو الله في السماوات وفي الأرض ، وهو الذي في السماء إِلَه ، وفي الأرض إله ، وهو الذي يصوِّرُكم في الأرحام كيف يشاء ، وهو معكم أينما كنتُم ، وهو الذي استوى إلى السَّماء وهي دُخَان .

وهو الذي استوى إلى السماءِ فَسوَّاهُنَّ سبع سماوات ، وهو الذي استوى على العرش ، قَد كان وَلا خَلْق ، وهو كما كان إذ لا خَلْق ، لم ينتَقِل مع المُنتَقِلين) .

فقال أبو قُرَّة : فَما بَالُكم إذا دعوتُم رفعتم أيديكم إلى السماء ؟

فقال (عليه السلام) : (إن الله استعبدَ خلقه بِضُروب من العبادة ، ولله مَفازِعَ يفزعون إليه ومستعبد ، فاستعبَدَ عبادَه بالقول والعلم ، والعمل والتوجّه ، ونحو ذلك استعبدهم بتوجيه الصلاة إلى الكَعبة ، ووجه إليها الحَجَّ والعمرة .

واستعبد خلقه عند الدعاء والطلب ، والتضرّع ببسط الأيدي ، ورفعها إلى السَّماء حال الاستكانة ، وعلامَة العبودية والتذلل له) .

فقال أبو قُرَّة : من أقرب إلى الله الملائكة أو أهل الأرض ؟

فقال (عليه السلام) : (إن كُنتَ تقول بالشِّبر والذراع ، فإن الأشياء كلها باب واحد هي فعله ، لا يشتغل ببعضها عن بعض ، يدبِّر أعلى الخلق من حيث يدبر أسفله ، ويدبر أوَّله من حيث يدبِّر آخره من غير عناء ، ولا كُلفة ولا مُؤْنة ، ولا مشاورة ، ولا نصب .

وإن كنتَ تقول : من أقرب إليه في الوسيلة ، فأطوَعهم لهُ ، وأنتم ترون أن أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد.

وروَيتم أن أربعة أملاك التقوا أحدهم من أعلى الخلق ، وأحدهم من أسفل الخلق ، وأحدهم من شرق الخلق ، وأحدهم من غرب الخلق ، فسأل بعضهم بعضاً فكلهم قال : مِن عندِ الله ، أرسلني بكذا وكذا .

ففي هذا دليل على أن ذلك في المنزلة دون التشبيه والتمثيل) .

فقال أبو قُرَّة : أتقرّ أنَّ الله مَحْمُول ؟

فقال (عليه السلام) : (كُل محمولٍ مفعول ، ومضاف إلى غيره ، محتاج ، فالمحمول اسم نقص في اللفظ ، والحامل فاعل ، وهو في اللفظ ممدوح .

وكذلك قول القائل : فوق ، وتحت ، وأعلى ، وأسفل ، وقد قال الله تعالى :

(وَللهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) [الأعراف : ١٨٠] .

ولم يقل في شيء من كُتُبه أنه محمول ، بل هو الحامل في البَرِّ والبحر ، والمُمسك للسماوات والأرض ، والمحمول ما سوى الله ، ولم نسمع أحداً آمن بالله وعظَّمَه قط قال في دعائه : يا محمول ..) .

فقال أبو قُرَّة : أفنكذِّب بالرواية : إن الله إذا غضب يعرفُ غضبه الملائكة الذين يحملون العرش ، يَجدُونَ ثقله في كواهلهم ، فَيَخرّونَ سُجَّداً ، فإذا ذهب الغَضَب ، خَفَّ فرجعوا إلى مواقفهم ؟ .

فقال (عليه السلام) : (أخبرني عن الله تبارك وتعالى منذ لَعَن إبليس إلى يومك هذا ، وإلى يوم القيامة ، فهو غضبان على إبليس وأوليائه ، أو عَنهم رَاضٍ) ؟

فأيَّد أبو قُرَّة كلام الإمام (عليه السلام) قائلاً : نَعَم ، هو غضبان عليه .

وانبرى (عليه السلام) قائلاً : (وَيْحَك ، كَيف تَجتَرِئ أنْ تَصِفَ رَبَّك بالتغيّر من حال إلى حال ، وأنه يجري عليه ما يجري على المخلوقين ؟

سُبحانه ، لم يزل مع الزَّائلين ، ولم يتغيَّر مع المُتغيِّرين) .

واستولى الذهول على أبي قُرَّة ، وحارَ في الجواب ، وانهزم من المجلس وهو غضبان ، وقَد أُترِعَت نفسُه بالغيظ والحقد على الإمام (عليه السلام) .